الدكتور شبلي شميل

علومهُ

البحث في علوم الفقيد الكريم الدكتور شميل يُنظَر فيهِ اولاً الى علومهِ الطبية وما جرى عليهِ من الاساليب في معالجة المرضى والجرحى والنفاس لانهُ كان طبيباً وجرّاحاً ومولّدًا واضطرَّ ان يمارس كل فروع الطب العملي اي الطب الباطني وطب العين والاذن والانف والحلق والجلد ويعمل العمليات الجراحيَّة على انواعها من صغيرة وكبيرة لان الاختصاص اي الاختصاص بفرع مخصوص من فروع الطب كان نادراً في هذه البلاد حينما خرج للتطبيب. ولعلهُ مارس طب الاسنان ايضاً كما جرت عادة الاطباء حينئذٍ. ولم يكتفِ بذلك بل فتّش عن بعض الكتب الطبيَّة القديمة كفصول بقراط وارجوزة ابن سينا وشرحها ونشرها. وانشأ اكبر مجلة طبية باللغة العربية وهي مجلة الشفاء وكان يحررها كلها. ولا بدَّ لنا من ترك البحث في علومهِ الطبيَّة الى احد اخوانهِ الاطباء والاقتصار على علومهِ البيولوجية والاجتماعية

العلماء فريقان فريق يبحث ويحقق حتى يكتشف ناموساً طبيعيًّا تبنى عليهِ الاحكام او حقيقة علمية تقام عليها القواعد كاسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية وداروين مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وباستور مكتشف اسباب الاختمار والفساد وسندليف مكتشف الناموس الدوري في الكيمياء. وفريق يتناول هذه النواميس والحقائق ويبني عليها علوماً واسعة النطاق او يفسّر بها الافعال الطبيعيَّة والاعمال الانسانية كما فعل هكسلي وسبنسر ولستر وبوانكاره وغستاف لبون وكوخ وفرخو وكثيرون غيرهم من الذين افادوا نوع الانسان فوائد لا تقدر. والعلماء الاولون من اهل النظر في الغالب والآخرون من اهل العمل وقد يقتصر عملهم على تعميم العلوم وترغيب الناس فيها واتخاذها وسيلة لنفع الانسان. ولقد كان الدكتور شميل من هذا الفريق الاخير لانهُ تناول مذهب النشوء وترجم كتاباً مفصَّلاً فيهِ وهو شرح يختص بمذهب داروين ثم توسَّع في هذا الموضوع وطبَّقهُ على كل شيء في الكون حاسباً اياهُ وسيلة لغاية سامية وهي اصلاح حال المجتمع الانساني كما سيجيء. ولو اتيح لهُ ان يخدم بلادهُ في منصب سياسي لادخل فيها اصلاحات كثيرة صحيَّة وقضائية وتعليميَّة واجتماعية لان مذهب النشوء لا ينحصر في تفسير تولّد انواع الحيوان والنبات بعضها من بعض بل يتناول تولّد الاخلاق والشرائع والقوانين وكل اعمال البشر. وقد اهتمَّ كثيرون من اصدقائهِ بادخالهِ مجلس الاعيان العثماني حينما كُنَّا نتوقع من ذلك المجلس اكبر

نفع للبلاد العثمانية فنشأوا ولو نجحوا وهو يكره المداجاة لاصابة ما اصاب صديقهُ السيد عبد الحميد الزهراوي رحمة الله عليهِ مع ان هذا كان الى التقيَّة اميل حتى انهُ كان يوقع المقالات التي دافع بها عن الدكتور شميل في جريدة ابوَّبد باسم مستعار خوفاً من السنة الناس

واذ قد قدَّمنا ذلك ننظر اولاً فيما كتبهُ في مذهب النشوء مما يتعلَّق بعلم الاحياء وثانياً في تطبيقهِ هذا المذهب على علم الاجتماع بوسع معانيهِ

علم الاحياء او العلوم البيولوجيَّة

ذكر الدكتور شميل في مقدمة كتابهِ فلسفة النشوء والارتقاء انهُ سمع بمذهب داروِن وهو يدرس الطب في المدرسة الكلية سنة ١٨٧١ قال « سمعت ولا اذكر كيف سمعتُ انهُ قام رجل يدَّعي ان اصل الانسان من القرد فلم اقرَّ حقيقة هذا القول ولم يكن في تعليم المدرسة ما يحملني على التبشُّر فيهِ . وغاية ما اذكر اني لم اسمع بهِ حتى اظهرت اشمئزازي منهُ ومن قائلهِ الذي اعتبرتهُ حينئذٍ دعيَّاً ما خالف الاَّ ليعرَف ولا عجب فان الكيفيَّة التي ذُكر لي فيها والتي يذكرهُ بها دائماً خصومهُ من ان القرد اصل الانسان لا يمكن ان تُحدث في سامعها لاول مرة وهو مشرب بالاعتقادات المخالفة الاَّ نفوراً ولو انَّ في نوع الانسان من هو احطُّ من القرد بكثير . وهو سلاح يفتريهِ خصوم هذا المذهب لتحقيرهِ والاَّ فمذهب داروِن لا يقول ان القرد اصل الانسان وان الحمار اصل الفرس بل ان الانسان والقرد والفرس وسائر الاحياء من اصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة وتجرُّد قواها وقد تغيَّرت تبعاً لناموس المطابقة حتى بلغت مبالغها الآن بالانتخاب الطبيعي »

ولكن ما نفر منهُ عند سماعهِ اياهُ عاد فاثبت بعض اصولهِ في خطبتهِ النبأية التي تلاها حينما نال شهادتهُ الطبيَّة في صيف تلك السنة وموضوعها « اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الاقليم والغذاء والتربية » . والحق الذي لا مرية فيهِ ان بعض علوم المدرسة الكلية التي تعلَّمها كعلم النبات وعلم الفسيولوجيا وعلم التشريح يريِ دارسهُ مشابهة تامة بين انواع النبات وانواع الحيوان فانواع النبات تجري في تفريخها ونموها وظهور غصانها واوراقها وازهارها واثمارها على اساليب مماثلة او متشابهة وتتغير اطوارها بتغير الاقليم وكذا الحيوانات على اختلاف انواعها . واذا نظرنا الى العظام في كف الانسان وكف القرد وكف الخفَّاش وزعنفة الفقمة والدلفين وجناح الخفاش لم يسعنا الاَّ القول بانتهائها من اصل واحد او انها مكوَّنة على نسق واحد . والمرجح عندنا انهُ كان لهذه العلوم التي تعلَّمها الدكتور شميل في المدرسة الكلية اليد الطولى في تهيئة عقلهِ لقبول مذهب النشوء حالما اطَّلع على تفاصيلهِ

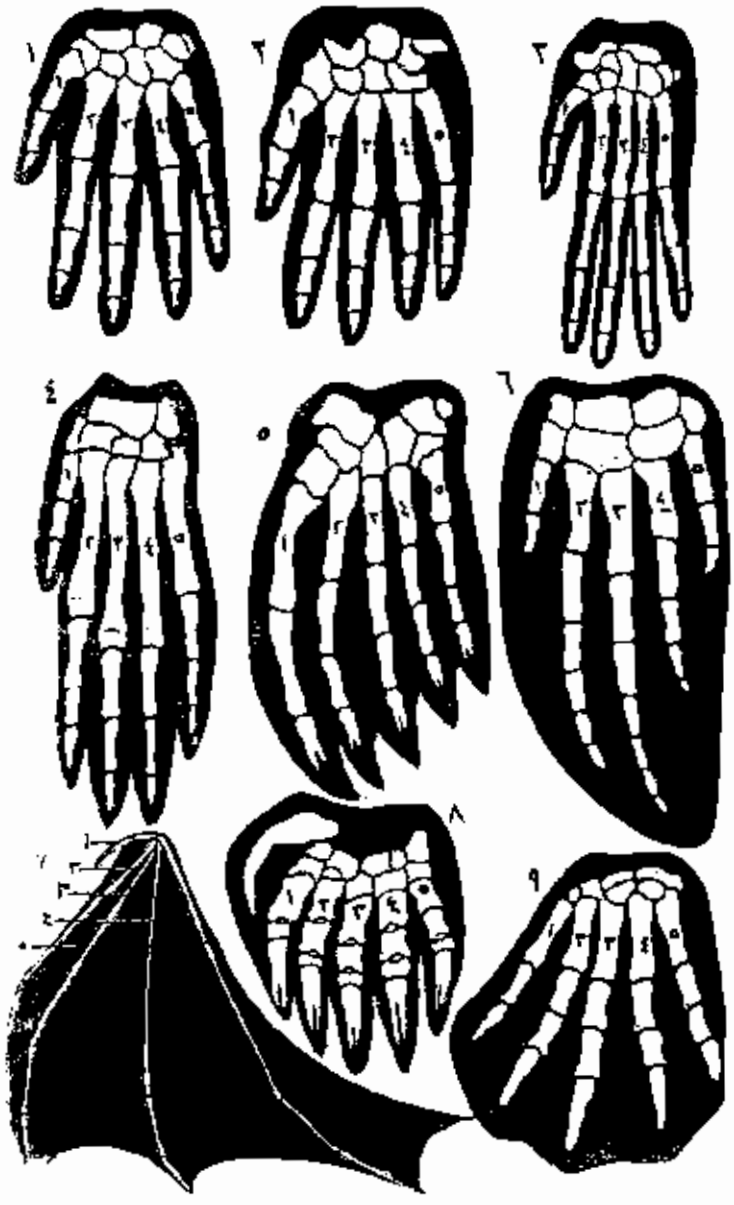

(١) كف الانسان (٢) كف الغورلا (٣) كف الاورانغ
(٤) كف الكلب (٥) رعنفة القسمة (٦) رعنفة الدلفين
(٧) جناح الخفّاش (٨) كف الطير (٩) كف الاورنيثورنكوس

مقتطف مارس ١٩١٧

امام الصفحة ٢٢٦

ثم ان الدكتور شميل صرّح في مقدمة الطبعة الثانية من شرح بخنر التي صدرت منذ سبع سنوات انهُ لم يلبث ان غادر المدرسة الكلية حتى صار مذهب النشوء موقف افكارهِ وموضوع حديثهِ وغرضهُ في كل كتاباتهِ . ولم يجد حينئذٍ ادنى صعوبة في تطبيقهِ على الهيء ما يرجع اليهِ قبل ان يطّلع على مؤلفات الغلاة فيهِ كيكل و بخنر . وعلّل ذلك بقولهِ ان علوم المقابلة في الطب تساعد كثيراً على ذلك وبان تربيتهُ المدرسية لم تسمهُ بطابعها فان اعتلال صحتهِ في حداثتهِ لم يسمح لهُ بان يكون من مخرجي المدارس في ما خلا الطب ولم يقرأ شيئاً من العلوم الكلية التي يقولون انها توسع العقل الى ان قال « واي شيء الذ بل افيد من معرفة تحوّل المادة وتحوّل قواها فيها ومعرفة انها شيء واحد لا تهدأ لهُ حركة — الفة في الجماد وانتخاب في النبات وادراك في الحيوان وارادة في الانسان على اختلاط في آفاقها عمّا ما شئت : حياةً او حرارة او كهربائية او نوراً او حركة او جاذبية او شوقاً او حبًّا فهي واحدة في الجوهر وان اختلفت في المظهر » وذلك بعد ان قال في مقدمة الطبعة الاولى التي انشأها سنة ١٨٨٤ ما نصهُ

« واعلم ان الانسان على رأي هذا المذهب طبيعي هو وكل ما فيهِ مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبقَ سبيل الى الريب فيها اليوم ولو اصرَّ على انكارها مَن لا يزال مغمول التعاليم القديمة راسخاً في ذهنهِ رسوخ النقش في الحجر فالانسان يتصل اتصالاً شديداً بعالم الحس والشهادة وليس في تركيبهِ شيء من المواد والقوى يدلُّ على اتصالهِ بعالم الروح والغيب فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيهِ تعمل على حكم قوى الطبيعة فهو كالحيوان فسيولوجيًّا وكالجماد كيماويًّا والفرق بينهُ وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعَرَض لا الجوهر . فالانسان يحس والحيوان يحس والانسان يدرك والحيوان يدرك وناموس التغذية واحدة فيهما . غير ان الانسان يدرك اكثر من الحيوان لانهُ اكمل منهُ كما ان الحيوان العالي يدرك اكثر من الحيوان الذي دونهُ . وعناصرهُ كعناصر الجماد تتفاعل وتتركب وتنحل وتتحرك وتولّد حرارة والحياة كلها احتراق »

هذه خلاصة ما قالهُ في علم الاحياء وهو قول جماعة كبيرة جدًّا من العلماء الطبيعيين البيولوجيين ولكنهُ ليس قولهم كلهم ألا ترى ان ولس قسيم دارون في مذهب النشوء يستثني الانسان لان بحثهُ الطويل الذي وصلهُ الى استنتاج مذهب النشوء مستقلاً عن دارون اوجب عليهِ ان يستثني الانسان و ينسب نشوءهُ الى قوة غير القوى الطبيعية المعروفة . ومثلهُ جماعة كبيرة من اشهر علماء القرن الماضي و بعض علماء القرن الحاضر

ولم يكتفِ الدكتور شميل بمتابعة العلماء الذين لم يروا في الكون غير المادة والقوة بل تابع ايضاً العلماء الذين قالوا ان ليس فيهِ غير القوة وان المادة حالة من حالات القوة لكنَّ العلماء الطبيعيين الذين اثبتوا بالتجارب ان المادة قوة مثل الاساتذة طمسن وستوني وهنفورد وكردكس ولدج اكثرهم من المعتقدين بوجود الارواح مستقلة عن المادة وكلهم من المعتقدين بصحة مذهب دارون ولكنهم لا ينفون وجود الخالق بل يقولون كما قال مطران كارليل وهو اذا عُدَّ صانع الساعة حكيماً ماهراً فالذي يصنع ساعةً تصنع ساعة اخرى احكم واسهر . اي اذا كان الخالق اودع في المادة او في القوة قوةً تجعلها تولد العناصر والمركبات الكيماوية والنبات والحيوان حتى الانسان فذلك ادلُّ على عظمتهِ وحكمتهِ وقدرتهِ مما لو فرضنا انهُ يُمنَى يوماً فيوماً بخلق كل نبات وكل حيوان وكل انسان

ولا يخفى اننا نحن المشارقة لم نصل حتى الآن الى البحث العلمي المبني على التجارب الكثيرة فلا نعرف احداً من ابناء هذا القطر والقطر السوري بحث بحثاً استقرائياً طويلاً في طبائع النبات والحيوان كما فعل كيشيه ولامارك وارن واغاسز وداروين ووِلس وهوكر وهكسلي وميڤار ولا في تحليل المواد وتركيبها وتنوُّع عناصرها كما فعل لافوازيه وداڤي وفراداي وكلفن وستوني وكوري ورمزي ولدج ورذرفورد حتى يحق لهُ ان يقول انهُ وصل الى هذه النتيجة او تلك بعد البحث والتحري . وانما نحن نطَّلع على مباحث هؤلاء العلماء ونختبر منها ما ترضاهُ عقولنا حسب استعدادها وما فيها من قوة الاستدلال . وهذا عين ما فعلهُ الدكتور شميل . لكنهُ لم يكتفِ بما تعلَّمهُ واقتنع بهِ بل توسَّع فيهِ وبذل جهدهُ وما لهُ في نشرهِ باللغة العربية وجعلهِ اساساً يبني عليهِ غيرهُ من التعاليم الاجتماعية فترجم كتاب بخنر في هذا الموضوع وقدَّم لهُ مقدمة مسهبة تكاد تكون خلاصة الكتاب . و بخنر عالم طبيعي قال بتولُّد الانواع قبلما نشر دارون كتابهُ بخمس سنوات ونسب هذا التولُّد الى فعل الاحوال المختلفة في سطح الارض من جهة والى تغير تدريجي في الجراثيم من جهة اخرى ولكنهُ لم يفصِّل فعل هذه الاسباب كما ينبغي . وقد وافق دارون في كل فصول مذهبهِ لكنهُ خالفهُ في امر جوهري وهو ان دارون صرَّح بان الخالق نفخ نسمة الحياة في الحي الاول الذي تولدت الاحياء منهُ ويختر نفى ذلك وقال بالتولد الذاتي والحق يقال ان شرح بخنر يتناول خلاصة ما كان معروفاً في عصرهِ عن مذهب النشوء وعن ارتقاء الفلسفة من القدم عصورها الى ذلك الحين وقد صرَّح فيهِ بان القوة والمادة غير منفصلتين كانهما شيءٌ واحد

وما لبثت ترجمة الدكتور شميل لهذا الكتاب ان انتشرت حتى قام المرحوم الاستاذ

ابرهيم الحوراني ورد عليهِ في رسالة سماها مناهج الحكماء على نفي النشوء والارتقاء فاجابهُ الدكتور شميل واجاب غيرهُ من الذين انتقدوا مذهب النشوء يرد مسهب سماهُ الحقيقة الفتحة ٥ ببيتين من قول حكيم العرب وابلغ شعرائهم ابي العلاء المعري وهما

يربك ايها الفلك المدارُ اقصد ذا المسير ام اضطرارُ
مسيرك قل لنا في اي شيء ففي الهامنا منك البهارُ

والبحث في الحقيقة بعضهُ نظري وجدلي واكثرهُ عملي مبني على حقائق علميَّة بعضهُ حديث وبعضهُ قديم استنبطهُ من كتب الاقدمين مثال ذلك ما نقلهُ عن بقراط اليوناني ابي الطب حيث قال في كتاب الاهوية والمياه والبلدان « اني اغضُّ النظر عن الامم التي تختلف قليلاً فيما بينها واقتصر على ذكر الاختلافات العظيمة الناشئة اما من الطبيعة واما من العادة واذكر اولاً جيل الميكروسفال (ذا الراس المتطاول) فان هذا الجيل لا يوجد جيل يشبههُ في تكوين الراس . . . وفي الاصل كانت العادة سبباً لطولهِ واما الآن فقد صار للطبيعة يد في ذلك واصل هذه العادة انهم يعتبرون طول الراس من علامات النبالة واول ما يولد الطفل اذ تكون اعضاؤهُ مسترخية ورأسهُ ليناً يضغطون الراس بين اليدين حتى يتطاول ويشدونهُ بربط وآلات مناسبة يقعد بها شكلهُ الكروي وتزيد في طولهِ وهذا التكوين نشأ في الاصل عن العادة ثم صار مع الزمان طبيعيًّا لا حاجة فيهِ الى العادة . . . فاذا كان الاباء الصلع يلدون اولاداً صلعاً وذو العيون الزرق يلدون اولاداً بعيون زرق مثلهم فما المانع ان اناساً طوال الرؤس يلدون اولاداً طوال الرؤس نظيرهم » . وما نقلهُ عن الفيلسوف الاجتماعي العربي ابن خلدون وهو قولهُ « انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر افق المعادن متصل باول افق النبات وآخر افق النبات متصل باول افق الحيوان ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر افق منها مستعد بالاستعداد الغريب لان يصير اول افق الذي بعدهُ واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعهُ وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية » . وكثير من مباحث الحقيقة فلسفي كالكلام على الجوهر الفرد ووحدة العناصر وقدم المادة واصل الحياة وقد تابع فيهِ اكابر العلماء الاوربيين ونهُ في المقتطف مقالات كثيرة من هذا القبيل في المواضيع الطبيعية والاجتماعية كالحياة والجنس وانواعهِ المختلفة واصل الاجسام الحيَّة وحياة الجماد والادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان والاجتماع البشري والعمران والمرأة والرجل وهل يتساويان والاذكار والاناث ومناجاة الاحلام وفزع الاوهام

والخلاصة انهُ بسط مذهب النشوء فيما ترجمهُ عنهُ وكتبهُ فيهِ احسن بسط وعززهُ بكل الادلَّة العلمية التي تذكر لتعزيزهِ . ومذهب النشوء حقيق بذلك لانهُ غير محصور في نشوء الحيوانات بعضها من بعض بل يتناول نشوء كل شيء فقلم الحديد او النحاس او الذهب الذي لكتب بهِ الآن نشأ من قز الغاب الذي كنا نكتب بهِ في صبانا . والمركبة البخارية التي تسير بنا الآن بسرعة الطير نشأت من المركبة التي يجرها الحمار او البغل . والمحراث البخاري الذي يحرث عشرين فدانًا في النهار نشأ من المحراث الخشبي الذي يجرهُ الثور وهذا من عود اعقف كان قدماء المصريين يشقون ارضهم بهِ . وقس على ذلك كل العلوم والفنون والشرائع والقوانين والعادات فان ناموس النشوء يشملها كلها ولكن عقل الانسان انشأها

العلوم الاجتماعية

لو كان غرض الدكتور شميل مما ترجمهُ وكتبهُ في مذهب النشوء مجرَّد اقناع القراء بان انواع النبات والحيوان متسلسل بعضها من بعض لذهب اكثر تعبهِ سدًى نعم ان العلم حريٌّ بان يطلب لذاتهِ من غير نظر الى الفوائد التي تجنى منهُ ولكن كونهُ مطلوبًا لذاتهِ مرغوبًا فيهِ من غير انتظار فائدة منهُ لا يستلزم ان يكون عديم الفائدة لانهُ قد يكون وسيلة لغاية كبيرة . ومن هذه الجهة نظر الدكتور شميل الى مذهب النشوء . فاولاً حسبهُ مبنيًّا على العلوم الطبيعية التي هي وسيلة وغاية . وثانيًا حسبهُ اساسًا لعلوم الاجتماعية التي قال فيها « ان غايتها الحقيقية اعتبار الانسان في كل مكان اخًا للانسان مما يدعو الى تصالح الامم من فوق حدود الاوطان بل بها تجنى تلك الغاية الكبرى المنتظرة من العلم الاجتماعي الذي هو دين البشرية الحق والتي لا تتيسَّر في اي تعليم آخر ألاَّ وهي التسامح او التساهل الداعي الى التعاون الحقيقي الضروري للعمران والمبني على معرفة الحق والواجب لا على الرفق والاحسان »

اما العلوم الطبيعيَّة كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم المعادن وعلم الجيولوجيا فسبب ارتقاء اوربا واميركا الى الاخذ بها وتوسيعها والاعتماد عليها وانحطاط الشرق الآن واوربا في العصور الغابرة الى اهمالها والاخذ بالعلوم النظرية والفلسفية . وقد اخرج سنة ١٨٨٤ [illegible] « ان تلغى مدرسة الحقوق وتعرَّف كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية وان يوقف تنفيذ برنامج الجامعة كلاًّ تزيد معاهد العلوم النظرية واحدًا فتزيد البلوى وان ينشأ معهد عملي كبير يعلم فيهِ علم نشوء الارض والاجرام السموية وعلم الاحداث الجوية والاقاليم واختلافها وتأثيرها في الانسان وفي العمران وان يقام على انقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الفلك وتنشأ جامعة

لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي وتطبيق ذلك على الانسان والطب وسائر العلوم الحيوية والانثروبولوجية . وان تنشأ كتاتيب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية على نسبة السكان يعلَّم فيها الاطفال مبادئ العلوم الطبيعية البسيطة التي يفهمون منها طبائع الماء والهواء والجماد والنبات والحيوان و يوضع لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منهُ حقيقة الانسان ومركزهُ في الارض . وتنشأ جرائد تعلم الناس كيف يجب عليهم ان يكونوا نظافاً في اجسامهم وملابسهم ومآكلهم ومساكنهم وعقولهم . وتعلمهم ان كل نظام سولم في الارض والسماء في الجماد والنبات والحيوان خاضع لنواميس طبيعية لا تتزعزع وان سيرهم على هذه النواميس يفيدهم عثرات كثيرة في معايشهم صحياً ومادياً وادبياً . يُعلَّمون كل ذلك لكي يعلموا ان كل عضو في الاجتماع لهُ حقوق وعليهِ واجبات وان الاشتراك في المنفعة يقتضي لهُ على قدر اشتراكهِ في العمل وان المكافأة انما هي للاجتهاد لا للصنيعة وحينئذٍ يظهر الفضل الصحيح ويتنفى الفضل الكاذب

وكرَّر البحث في هذا الموضوع مراراً وتكلَّم عليهِ تكراراً وانشأ فيهِ مقالات شتى وبقي يجاهر بذلك الى أخريات ايامهِ فقد قال في آخر رسالة نشرها وسماها الرجحان ما نصهُ

ارضنا التي خزانة علم ... وهي حقل للعاملين خصيبُ
علمونا ان الحياة جهادٌ ... ومجال الجهاد فيهِ رحيبُ
علمونا أن الحنا من هذا الغير منا صحيحهُ مكسوبُ
انما نحن مثل اعضاء جسم ... ان يؤلَّم فكلهُ معصوبُ

وكانت مزيتهُ الكبرى التشديد بالظالمين وبالعايب على انواعها والمجاهرة بما يعتقدهُ حقاً ولو خالف بهِ جميع الناس سواء كان في العلميات او الادبيات او الاجتماعيات . قلمهُ ولسانهُ في ذلك سيَّان . وطالما حبَّر المقالات السياسية ونشرها في البصير والمقطم وغيرهما من الجرائد السيارة ينتقد بها معايب الحكام بما لا مزيد عليهِ من الصراحة

وقد عاش عيشة الاجتماع الذي تمناهُ فكم أمسى فقيراً بلا اجر ولا شكر وكم تناول الدرهم من الغني ليعطيهُ للفقير وكم حثَّ على انشاء مستشفى للفقراء وبذل في ذلك وقتهُ الثمين . وغاية ما أُسف عليهِ ويجب ان يأسف عليهِ الشرق كلهُ ان بلادهُ لم تعرف ان تنتفع بعلمهِ وعقلهِ واخلاقهِ في حياتهِ كما يجب . فعسى ان تنتفع بآثارهِ ويقوم من ابنائها كثيرون يقتفون خطواتهِ في البحث عن الحقيقة والمجاهرة بها